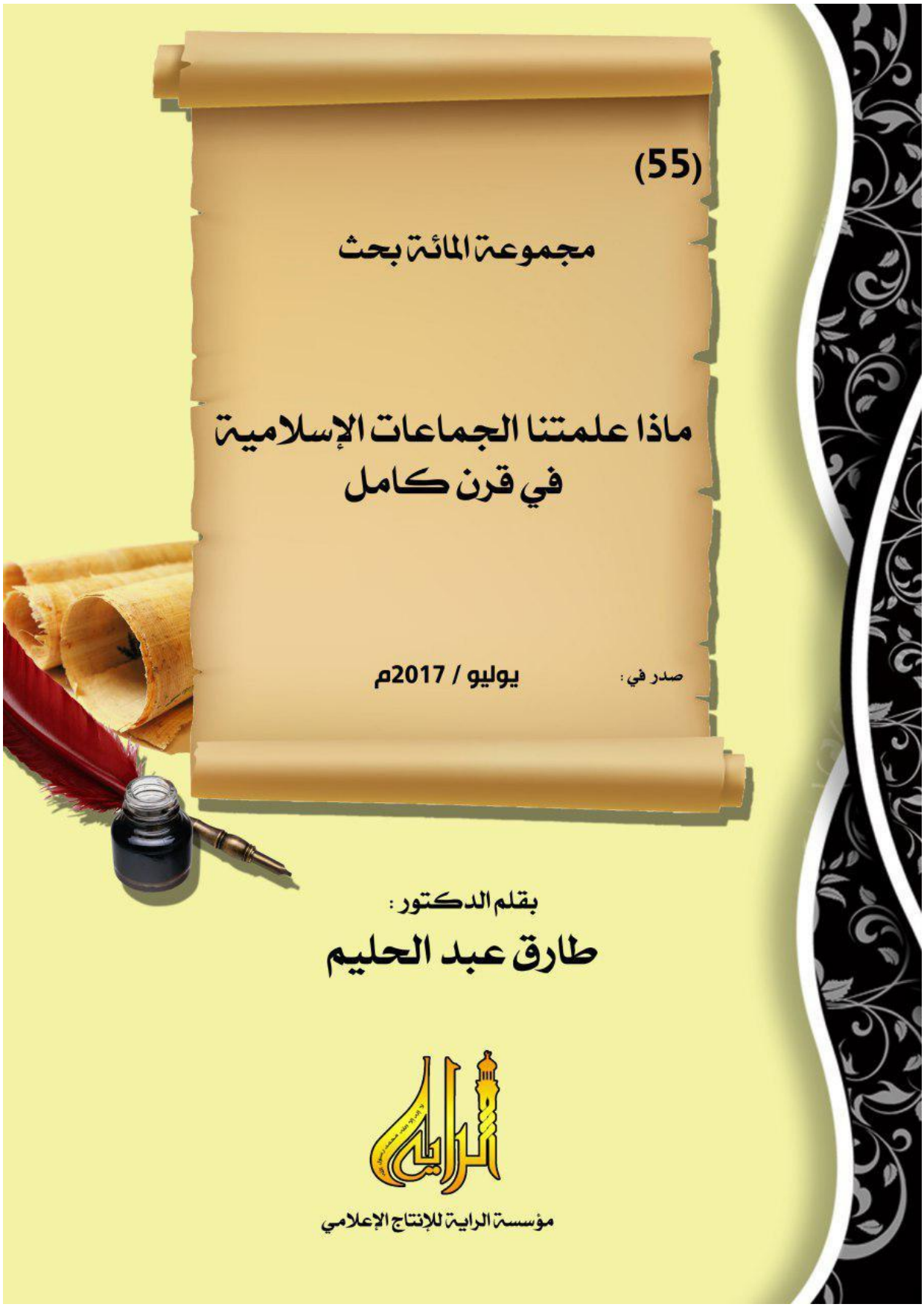
(55)
مجموعة المائة بحث
ماذا علمتنا الجماعات الإسلامية
في قرن كامل
صدر في: يوليو / 2017م
بقلم الدكتور:
طارق عبد الحليم
مؤسسة الراية للإنتاج الإعلامي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ماذا علمتنا الجماعات الإسلامية .. في قرن كامل

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

مقدمة

لا شك أن المائة عام الماضية، التي أعقبت سقوط الخلافة، قد حملت الكثير من التجارب والعبر التي يجب على الناظرين في شأن هذه الأمة ترديد النظر فيها مرة ومرات تلو مرات. فقد رأت الأمة خلالها كل أنواع الهجوم من الشرق والغرب، الشرق الشيوعي والغرب الصهيو-صليبي. كما كانت ردة فعل الأمة على درجات مختلفة، وإن تشابهت في عموماتها وفي درجة تأثرها بما طرأ عليها في مختلف البقاع، من جاكرتا إلى الدار البيضاء.

وقد كان التأثير الذي أحدثه الهجوم الثقافي والاقتصادي والعسكري، والذي تصاعدت وتيرته في ربع القرن الماضي، عنيفاً، عميقاً، شاملاً، لم يترك وجهاً من أوجه الحياة التي عاشتها الدول الإسلامية في تلك الرقعة إلا مسها، مسّاً ثقيلاً! فتبدلت القيم والعادات والتقاليد، ثم تدهورت الإخلاق والقيم، ثم انسحب الدين من مسرح الحياة السياسية، ليقبع في زوايا المساجد، ثم بدأ الهجوم على زوايا المساجد مؤخراً حتى يُستأصل الدين كله من أساسه، بل بدأ الهجوم على العقل والفكر الذي قد يحمل هذا الدين، بل الذي قد يحمل بذوره، لاقتلاعه من منبعه! ولاحول ولا قوة إلا بالله.

فهناك الأحداث، ثم هناك ردّة فعل الأمة عليها.

وهناك الكثير جدا للباحث مما يدعو للنظر والتأمل والاعتبار في كل تلك الأحداث، بل لا يسعها مجلدات تستوعبها سرداً وتحليلاً. لكننا، في هذا المقال سنحاول التركيز على وجه واحد من ردة الفعل من جانب الأمة، على تلك الأحداث. وهذا الجانب هو تكوين الجماعات الإسلامية، بمختلف أنواعها، والنظر في مواضع نجاحها ومواطن فشلها.

الجزء الأول

والجماعات الإسلامية، شكل من التجمعات الإسلامية، التي نعني بها الأحزاب "الإسلامية" كالأمة الكويتي، أو العدالة والتنمية الإخواني المصري أو النهضة التونسي أو غير ذلك من أحزاب، قامت كلها من داخل الأنظمة العميلة المرتدة، وعلى أسس علمانية خائنة لله ورسوله وكتابه. فلم يكن منها جميعا أمر رَشَدٍ أبداً، رأينا ما حدث في مصر وتونس، وما يجرى في الكويت إلا تعمية للشعب بأن هناك حزباً!

والشكل الثاني هو الجمعيات الإسلامية، والمنظمات الخيرية، والروابط والاتحادات العلمية، وهي أكثر من أن تُحصى، فمنها الجمعية الشرعية وأنصار السنة في مصر، ورابطة العالم الإسلامي، واتحاد علماء أوروبا، واتحاد علماء أمريكا الشمالية، وغيرها مئات. وباستثناء الجمعيات الخيرية التي تسعى لعمل الخير

العام ومساعدة الفقراء، فإن بقيتها كلها روابط هيئات واتحادات ضرار، ضررها أكبر من نفعها، بل ليس لها نفع على وجه الإطلاق، فهي إما عميلة للحاكم أو الملك أو الأمير، وإما مستقلة (صوريا)، لكنها تحمل خبثا، فيُسمح لها بالبقاء من حيث يعرف الحاكم ما تجرّه من ضرر على الإسلام والمسلمين، ومثال ذلك رابطة العالم الإسلاميّ.

ثم نأتي إلى المقصود من مقالنا هذا، وهو الشكل الثالث من تلك التجمعات، ونعني بها الجماعات الإسلامية الحركية، مثل الإخوان المسلمون، الجماعة الإسلامية بباكستان، جماعة الجهاد المصرية، جماعة القاعدة، الجماعة الإسلامية بمصر، الجماعة الإسلامية في الجزائر (الزوابري)، جماعة تركستان الشرقية الإسلامية، وإمارة القوقاز الإسلامية بالشيشان، وجماعة الشباب المجاهدين في الصومال، وغيرها من جماعات كثيرة تتراوح في عمرها، ودورها وفكرها، بين عقد واحد وثمانية عقود، وبين فكر موغلٍ في الإرجاء، إلى فكر حروريّ متطرف، ومنها ما هو على مذهب السنة، فكريا وحركياً. ثم ينضم لذلك الحركات الإسلامية الأخيرة التي نشأت نتيجة حربي العراق والشام، حيث فرّخت تلك الحروب جماعات، في شكل فصائل جهادية، مثل هيئة تحرير الشام، وأحرار الشام، وحركة البغدادي المسماة بتنظيم الدولة الإسلامية (داعش).

والحديث عن فكر تلك الجماعات وتوجهها، وظروف نشأتها وتطورها، ورؤوسها القيادية، وتاريخا الماضي وحاضرها الواقع، ومستقبلها المنتظر، وما آلت اليه، هو أمر وراء خطة هذا المقال، على أهميته وخطورته العظمي. فإن التأريخ لتلك الجماعات، لم يكن كاملا أبداً، لا زمنيا ولا فكرياً، كما أنه كتب كمقتطفات هنا وهناك، سرداً أكثر منه تحليلاً، وغالبه غير موثّقٍ مؤكد. وهذا من أعظم الخسائر الفادحة في عصرنا هذا. ولعل أحداً، وأظنه عمل لا يقوم به إلا هيئة متكاملة، أن ينهض بهذا العمل، تحت إشراف علماءٍ معروفين بقدراتهم الأكاديمية، وحيادهم الفكري، دون انتماء لأي من تلك الجماعات، درءاً للشُبَه.

والإسلام في الشرع الحنيف، يعتبر النهايات والنتائج بمعزل عن مقاصدها ووسائلها، بل يربطهما معا في نسق واحد، ويضعهما كلاهما في منظومة القضاء الإلهي المحتوم، الذي يقرر النتيجة بناء على السبب، في دنيا الناس، دون تخاذل عن السبب أو اندفاع لهدف.

ونحن حين نتحدث عن نجاح أمرٍ أو فشله، فإننا لا نعزو ذلك إلى جبر إلهي محتوم، وقضاء كوني مكتوب لا خيار لنا فيه، بل نعيده إلى الخلل في الأسباب والوسائل، مع التسليم بأنه مهما كان من العاملين، فلم يكن ليقع إلا ما وقع، وفقهاً لعلم الله التام، سبحانه.

والناظر إلى حال الأمة الإسلامية اليوم، في كلّ بقاعها، بلا استثناء أي بقعة منها، يرى أنه ما كان من عمل في المائة عام السابقة، قد فشل فشلاً ذريعاً في رفع الأمة من وهدتها، بل لم يعنها حتى على إبطاء سرعة تدهورها وانحطاطها، بل، في بعض الأحيان، أعان على هذا الانحطاط وساعد عليه!

كانت نشأت تلك الجماعات، السياسية التربوية، ثم الجهادية، تظهر كأنها هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يسلكها من يريد أن يُصلح، ومن يريد أن يُغير، والفارق بينهما كبير، غاية ووسيلة.

وقد اختلط الحابل بالنابل في هذه الجماعات، ودخل فيها ما شاء الله أن يدخل من كل أنواع البدع، واخترقها من اخترقها من جواسيس وعملاء الخارج، وشياطين النفوس من الداخل، منها ما تأسس على الانحراف أصلاً ومنها ما انحرف لاحقاً.

ولا أدل على ذلك من تاريخ الإخوان، والتحولات الفكرية والعقدية التي مرت بهم، ما قسّمتها إلى ثلاثة مراحل فيما دوّنت سابقاً. فغزتها بدعة الإرجاء، والتصوف، وانحرف مسارها الحركي مؤخراً إلى ما جرّ البلاد، في مصر وغيرها إلى شرّ منقطع النظير، هم وحدهم المسؤولون عنه أمام الله والناس. وقد ضيعوا حقوق الناس ودمائهم بما قاله مرشدهم إلى الضلال محمد بديع عن سلميته الملعونة. وما أحسب ما يقع بهم الآن فتنة وابتلاء، بل عقاب وجزاء.

ثم انظر إلى الجماعة الإسلامية المخذولة، بدأت حركتها البندولية بمغالاة في الدماء والأنفس، ثم تحرك بندولها لأقصى الجهة الأخرى، فصاروا يرعون الكفر ويتحدثون به ويتعاونون معه، ويتركهم السيسي بحزبهم الذي همّه جمع أموال للتجارة والعمل، خيبهم الله بما وقعوا فيه من كفريات محضة.

ثم انظر لحزب النهضة التونسي العلمانيّ بقيادة المخذول راشد الغنوشيّ، وهو أنكد من أي حزب علمانيّ المبادئ في الشرق المسلم اليوم.

وإذا وجهت شطر الحركات الجهادية في ساحات القتال المباشر، فحدّث ولا حرج!

أينما وجهت بصرك، وجدت خيبة وحسرة وانهزامية وانسحاق وعلمانية وكذب ونفاق، إلا من عصم الله، وهم قليل من قليل.

فحركة أحرار الشام بدأت بانحراف أصليّ في توجهها الشرعي، على يد حسان عبود، ثم جاء من بعده، وصحبه الذين إغتالتهم يد من لا نعرف، فرقة الطبالين النحاسية، وتبنوا عدداً من أسوأ الرويبضات الصغار، هاروش وشريفة ونجيب، كعلماء ومشايخ!! وهم بين جاهل أو علماني يدعي التجديد، أومتخرج على يد أحمد الطيب وعلى جمعة! وصلت إلى دعم الدولة المدنية (العلمانية) والقومية السورية، وحقوق المواطنة التي لا تقرها الشريعة، وتبرؤوا حتى من عَلَمِ لا إله إلا الله!

ثم ما أسموه جيش الإسلام، وهو عميل مفضوح صريح لدولة بني سعود، فكراً وتمويلاً تحريضاً وخيانة لله ورسوله، قاده السعودي التوجه زهران علوش.

وقد ذكرنا هذين الفصيلين، ووضعناهما ضمن الجماعات، من حيث يدّعون أنّ لهم فكراً ومبادئاً وكتّاباً وعلماء، يعلم الله أنه لم يصل أكبرهم ليكون طالب علم.

هذا حال الجماعات الإسلامية، إلا ما كان من تجربة طالبان والقاعدة وشباب المجاهدين وحركة تركستان الشمالية، مع نظر ناقد في الوسائل التي استخدمت في فترة من الفترات.

وهذا، كما يظهر، فشل كبير في تكريس هذا اللون من العمل للوصول إلى إعادة الأمة إلى سابق عهدها، إيمانا وقوة وسيطرة.

أظن أن فكرة "الجماعة الإسلامية" منذ بدأ هذا النشاط قد انحرف عن مساره في وقت قصير للغاية، وكان ذلك الانحراف مع بداية الخمسينيات، أي بعد أقل من ربع قرن على ظهور الجماعة الإسلامية في باكستان، وجماعة الإخوان في مصر.

كان الهدف من "الجماعة" هو رصّ صفوف مؤمنة، تتعاون فيما بينها على نشر فكرها المشتق من الكتاب والسنة، بين الناس، ومن ثم توسيع "قاعدة القبول" عند أبناء الشعوب المختلفة، والتقريب بينها، بناء على أخوتها الإسلامية الأصيلة، دينا ولغة.

لكن، صارت الوسيلة هي الهدف، وصار ضم الأعضاء للجماعة، والولاء لأفكارها هو الهدف الأصليّ، واختلط فكر القائمين عليها بما هو من مسلمات الشريعة، فكان أن عاقبها الله سبحانه بالفشل والحسرة والانقراض في بعض الأحيان، كما حدث لحرورية شكري مصطفي، ثم الزوابري ثم البغدادي، وما هو شكل من أشكال الاستئصال لجماعة الإخوان المسلمين، وتحول بعضها إلى أحزاب علمانية فاشلة بحتة لا علاقة لها بالإسلام أصلا كحركة النهضة في تونس.

صار الانتماء والولاء مقدّم على الدين والعلم والكفاءة، من حيث صارت الجماعة هي الهدف، لا إقامة الدين. ومن ثم، فقد الاجتماع غرضه ومصلحته، بل أصبح ضرّه أكبر من نفعه، من حيث أصبحت الجماعة، منفردة عن المجتمع، نائية عنه، بل ومستعلية عليه. ولم يصبح همّها نشر الدين للخارج، بل جذب الناس للداخل، بدين أو بغيره، طالما الولاء متحقق. وذلك متحقق في غاية الوضوح في طرفي منظومة الجماعات الإسلامية القائمة، في الإخوان قمة الإرجاء، وفي العوادية قمة الحرورية. فتراهما مشتركتين في

1. تقديم الولاء على الكفاءة والدين
2. الجهل المدقع بالشريعة
3. التحزب للجماعة، كأنها الدين، بل أهم.

مما ذكرنا، يتضح أنّ تجربة تكوين جماعات إسلامية بشكل عام، لم تنجح في تقريب الأمة للإسلام، بل على العكس، ساهمت في تفريقها وتفتيتها.

لابد إذن من أن ينظر علماء الأمة الربانيون، في وسيلة جديدة، تضمن القدرة على تحويل عقيدة الأمة إلى الصواب، وجمع كلمتها في منظومة إجتماعية لا جماعية، تأخذ في اعتبارها الأخطاء الجسيمة التي حدثت في الماضي، وتراعي ظروف الحاضر ومعطياته.

د طارق عبد الحليم 21 يولية 2017 – 27 شوال 1438

الجزء الثاني

وحين نشير إلى الوسيلة الجديدة التي يتعين على حكماء الأمة وعلمائها أن يجمعوا كلمة الأمة بها، وأن تصحح عقائدهم، فإننا نراعى ما يلى:

1. أن المنهج الحق هو ما تركنا عليه رسول الله وما عليه صحابته وتابعيه وتابعيهم إلى يوم الدين، وهو التوحيد الخالص، والطاعة المطلقة غير المشروطة لله سبحانه في أوامره ونواهيه، شعائراً وشرائعاً، حسب ما يفضي اليه النص الصريح، أو الإجتهاد الصحيح، لمن يحمل أدوات النظر فيهما، لا لكل عابث مخرّب.

2. أنّ المناهج لا تقوم بذاتها، بل بمن يحملها بقوة "يا يحي خذ الكتاب بقوة"، "خذوا ما آتيناكم بقوة". وهؤلاء الحاملون للمنهج، الذي هو أمانة الإنسان في الأرض" يجب أن يعرفوا ماذا يواجهون، وكيف سيواجهونه.

3. أنّ هؤلاء الحاملون للأمانة، هم "جماعة" من ناحية، وهم "جزء من كلٍّ" لا يتجزء من أمة من ناحية أخرى. وهذا التصور ينبني عليه خصوصية وعمومية. أما الخصوصية، فهي حركية تتعلق بالأداء لا بانعقاد ولاء، إذ ولاؤهم منصرف إلى الله والرسول وأمة الإسلام بعامة. وأما العمومية، فهي الإندماج في مشاكل الأمة، والرحمة بأفرادها، وعدم التعالى عليهم، ومعرفة أن "الجهل عارض يزول"، وأنّ الأصل فيهم الإسلام لا الكفر.

4. أن يميّزوا بين أنواع ثلاثة أمر الله بها لنشر الحق المبين، وهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدعوة إلى سبيل الله، والجهاد دفعاً وطلباً. فكم من "جماعة" و"مفكّر" بل و"داعية" خلط بين تلك الثلاثة فضَلّ وأضَلّ!

5. أن تلك الأنواع المذكورة كلها باقية إلى يوم الدين لكنّ منها ما لا يتوقف لحظة، ومنها ما يتوقف فترة أو فترات حسب الأحوال والظروف. وأنّ مناط التوقف هو من باب الإجتهاد الذي يجب أن يتمثل فيمن يقرر ذلك زماناً ومكاناً.

6. أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باق إلأى يوم الدين، لا يتوقف لحظة، فإن قام به أحد، سقط عن الباقين ممن في دائرته. ويجب أن يقوم به عدد يكفي لتغطية حاجة الأمة من ذلك الواجب الحتم.

7. أن المعروف معروفاً لا ينقلب منكراً، وأن المنكر منكراً لا ينقلب معروفاً، لا بإعتبار مصالح متوهمة ولا بدرء مفاسد متوهمة. فالمصالح الصحيحة التي تتمشى مع الشرع وتطابق كلياته معروفها معروف ومنكرها منكر، لا يصادم نصاً ولا يقوم على وهمٍ أو آجل من الغيب.

8. أن إنكار المنكر مقدّم على الأمر بالمعروف "كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون"، فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

9. أنّ إنكار المنكر قائم على نصوص صحيحة ثابتة، ومبثوث متكرر في الشرع الحنيف، ومتقرر ككلية عامة لا تخصص إلا باستثناء شرعي ثابتٍ بنص أو باجتهاد ضمن إطار الشرع، ممن له حق الإجتهاد[1]. ولا تصح مجرد إطلاق صفة المصلحة[2] كاستثناء معتبر، إلا إن تحققت شروطها التي تجعلها في مصاف المستثنى من القاعدة الكلية.

10. أنّ الدعوة علم قائم بذاته، يلزمه حدّ أدنى من العلم الشرعيّ ليقى الداعية نفسه من الزلل، ويقى الأمة الضلال مما في حوزته من خلل. ونفي الخبث والخبثاء عن الدعوة واجب على كلّ صاحب علم، ولو بالقوة، حسب الحال، من حيث هو ضرر داخلي وسرطان مقيم غير مرئي.

11. أنّ جهاد الطلب اليوم هو مما توقف وارتفع وجوبه عن الأمة، من حيث هي في أشد حالات ضعفها وفقدانها لكلّ مقدراتها، ثقافياً، وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً. والقدرة مناط التكليف.

12. أن جهاد الدفع، أو دفع الصائل المعتدي واجب حتمٌ لا يتوقف إلا بتحرير الأمة من المستعمر اللعين، الداخلي والخارجيّ، مهما كلّفها من ثمن، ومهما طال أمد هذا الدفع، فحفظ الدين والنفس والمال والعرض والعقل، مقاصد شرع الإسلام الحنيف، لا يتوقف الدفاع عنها، بعضها أو كلها، حتى يرتفع الأذي وينجلي العدوان. وهذا أمرٌ مركوزٌ في كل الفطر الإنسانية، وحقٌ لكل بشر مهما اختلف نوعه أو جنسه أو دينه، فهو من الأوامر الكونية قبل أن يكون من الأوامر الشرعية.

ولا أدّعى أنني جئت بكل النقاط التي يجب على من يتصدى للنظر في الوسائل الجديدة التي تحتاجها الأمة للتصدى للعدوان القائم الشرس اليوم على أصل وجودها وبقائها، لكنها جهد المقلّ، ولا أظن أنّ فيها ما يوجب خلافً بين أصحاب العلم، من أتباع هذا الطريق.

والله المستعان

د طارق عبد الحليم 16 فبراير 2017 – 1 جمادي الثاني 1439

[1] راجع بحثنا "الإستثناءات من القواعد الكلية في الشريعة الإسلامية" http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-73154

[2] راجع كتابنا "المصلحة في الشلايعة الإسلامية" http://tariq-abdelhaleem.net/new/Artical-70583